آداب العالم والمتعلم من خلال مخطوط "في طلب العلم"

لأبي الربيع سليمان بن يخلف المزاتي القابسي

د. رضا الأبيض

جامعة قابس . تونس

ridhalab69@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2018/05/26، تاريخ القبول 2018/11/28

الملخص:

اهتمت الإباضية بالتعليم من خلال نشرها العلوم الاسلامية وكتابة المخطوطات.

لقد كان للتربية ونظام العزابة دور هام في المحافظة على هذا المذهب في جربة وسائر الأقطار الاسلامية الأخرى .

في هذه المقالة نهتم بمخطوطة عنوانها: "آداب العالم والمتعلم" للفقيه الإباضي أبو الربيع سليمان المزاتي القابسي (توفي 1079) . وهي مخطوطة موجودة في المكتبة البارونية بجربة عدد 88-2

كلمات مفتاحية : إباضية، أبو الربيع سليمان المزاتي، عالم، متعلّم

Abstract

Ibadism (al-Ibāḍiyyah) was interested in boosting education through propagation of Islamic sciences and encouragement of manuscript writing. Education and the system of Azzaba played an important role in preserving the Ibadiya doctrine in Djerba and in other Islamic countries. In this article, our interest is on a manuscript entitled “Ethics of the Scholar and of Education Seeking "by the scholar (Faqih) abū ar-rabī` sulaymān Al-Mozati Al-Gabsi (died 1079) .The manuscript is available in the Barouni Library in Djerba (Tunisia) under No 88-2 2

Key words : Ibadism, abū ar-rabī` sulaymān Al-Mozati, manuscript.

التمهيد:

اهتمت الإباضية، كغيرها من المذاهب والفرق التي شكلت جزءا من النسيج الاجتماعي والثقافي ببلاد المغرب، بالتربية والتعليم ممارسة و"تنظيرا" لنشر الإسلام ولنشر المذهب وحمايته. ولا شكّ أنّ جعل العلم أحدَ شروط الإمامة دليلٌ على مركزية التعليم في الفكر الإباضي.

ولقد تجلى اهتمام الإباضية بالتربية والتعليم في ما أنشئوا من حلقات ومدارس لتعليم الطلبة وإعداد الدعاة، و في ما ألفه فقهاؤُهم وعلماؤهم من رسائل في فضل العلم وآداب التعلّم .

ورغم ما تعرضت إليه مؤلفاتُ الإباضية، بسبب الفتن والحروبِ، من إفساد وحرق فإنّ أجيال الإباضية حافظوا على كثير من مراجعهم وأدبياتهم. ولعلّ الفضلَ في ذلك يعود لنظام الحلقات وإلى نظام العزابة الذي أبدعوه فكان بمثابة الهيئة الدينية والسياسية التي تشرفُ على شؤون الجماعة وتوفر لها أسبابَ الصمود والاستمرار.

لقد حفظ نظام العزابة كيانَ الفرقة، وحافظ على تراثها الفكري وعلى ما ألف علماؤُها من كتبٍ ورسائلَ في شتّى المعارف والعلوم عامّة وفي التربية والتعليم على وجه التخصيص.

ولقد كان لاعتناء الإباضية بالتربية والتعليم ممارسة وتأليفًا دور أساسي في استمرار الجماعة، رغم المحن، إلى اليوم. وهو الأمرُ الذي جعل بعض الدارسين يرون استحالة دراسة تاريخ هذه الفرقة ومعرفة أسباب استمرارها، مقارنة بفرق أخرى، في معزل عن دراسة نظام التعليم والتربية .

انتشار المذهب في بلاد المغرب :

كانت بلاد المغرب منذ بداية القرن الأول قبلة الصحابة والتابعين والفقهاء. ولقد مثل بناء عقبة الجامع بالقيروان 55 هـ بداية تشييد المساجد فضاءً لتعليم المسلمين، والبربر على وجه الخصوص، اللغة العربية والقرآن وعلومَه .

وفي القرن الثاني تولّى المغاربة أنفسُهم حركة العلم والتعليم. وهو القرنُ الذي سيشهد احتدام الصراع المذهبي والفرقي. ولذلك فإنّ الرؤية للتعليم محتوياتٍ وأساليبَ وأهدافا ستتتأثر بعقائد المذاهب وأطروحاتِها السياسية وبظروف أهلِ المذهب أو الجماعة قوّة أو ضعفًا.

أمّا بالنسبة إلى المذهب الإباضي فقد دخل بلادَ المغرب زمن بني أمية. وكان لقادته نشاطٌ دعويّ في المجالس والحلقات العلنية (المساجد، المنازل..) والسرّية (الغيران والسراديب..). ولقد لقي هذا المذهبُ قبولا بين البربر لأسباب بعضُها يتعلق بمبادئ المذهب وأصوله، في حين يتعلق بعضُها الآخرُ بعلاقة البربر ببني أمية.

ولقد كان جبلُ نفوسة الفضاء الذي احتضن المذهبَ ودعاته حتّى عدّ " دار هجرة". وفي النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة (160 هـ) أعلن الإباضية عن " إمامة الظهور". غير أنّ حكمَهم لم يدم طويلا إذ سرعان ما آل إلى بني عُبيد.. (الاستيلاء على تاهرت). ولقد كانت جربة [1] إحدى أهمّ المناطق التي عرفت مدّا إباضيّا، واستقطبت وفودا هائلة خاصة بعد سقوط تاهرت في 296 هـ [2] .

لقد لعبت الجزيرة دورا هامّا في تاريخ هذه المذهب، وعرفت حركة علمية وتعليمية تشهدُ عليها قرائنُ منها: عدد العلماء الوافدين إليها وانتشار بناء المساجد وازدهار نظام الحلقات وكثرة التأليفات وإقبال التلاميذ والطلاب على العلم والتعلّم. ولا خلاف على أنّ التعليمَ والتأليف في العلوم يزدهران في ظروف الغلبة والاستقرار والشعور بالأمن وبالمقابل يتراجعان في فترات الحروب والتهجير والعمل السريّ..

[1]- محمدعلي دبوز : تاريخ المغرب الكبير ، مؤسسة تاوالت الثقافية 2010، ص 535

[2]- مبارك الميلي : تاريخ الجزائر في القديم والحديث ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، ج2، ص 87. د . ت.

والمتأمل في تاريخ الإباضية يلاحظ أنّ هذه الحركة تأثرت بأحوال بلاد المغرب عامّة وبوضعها الداخلي الذي عرف وضعًا صعبا في فترات طويلة. يقول محمود الأندولسي: "فالمتأمل في هذه الأوضاع يرى أنّ الإباضية عاشوا وقتئذ (ق 5 هـ) ظروفًا صعبة. ولا ريب أنْ يكون لمثل هذه الظروف انعكاسات سلبية على النشاط الإباضي من الناحية الثقافية. وبالفعل فقد تولد عن ذلك الاضطرابِ توقف الحلقاتُ وتفرق الطلبة الدارسين عن أخذ العلم. بل قد اضطر أغلبهم إلى التخلي عن العلم والتفرغ للقتال"[1].

لكن رغم أنّ الظروف السياسية والأمنية استنزفت طاقةَ فقهاء المذهب وعلمائه إلاّ أنهم ظلوا يولون أهميّة للتعليم والتربية لإدراكهم أهميّة التكوين في المحافظة على الكيان واستمرار الدعوة. ولذلك نظموا الحلقات وأبدعوا نظام العزابة [2] ، وقاموا بالرّحلات تعلّما وتعليما حتى عدّ القرن الخامس أرقى الفترات العلمية عند الإباضية. ولعلّ العودة إلى واقع الحياة الثقافية والتعليمية زمن الدولة الرستمية كفيل بتأكيد "غرام" الإباضيين بالعلم واهتمامهم بالتعليم [3] .

ومما تذكره المراجعُ الإباضية أنّ أبا الربيع (صاحب المخطوط الذي بين يدينا) بعد أنْ تعلّم الأصولَ رحل إلى جربة ليأخذ الفقه، وأنّه قبلَ اقتراحَ أنْ يساهمَ في تدريس الأصول لتلاميذ شيوخه قبْل أن يستأنفَ سلسلة من الرحلات التي كانت في أغلبها اضطرارية.

[1] – التحف المخزونة ، سلسلة المخطوطات الأصولية في الغرب الاسلامي ، حققه محمود الأندلوسي ، وراجعه د. مبروك المنصوري ص 11.

[2]– للتوسع انظر : فرحات الجعبيري نظلم العزابة عند الإباضية الوهبية في جربة ، منشورات المعهد القومي للآثار 1975.

[3] – محمدعلي دبوز : تاريخ المغرب الكبير ، فصل : غرام الدولة الرستمية بالعلم وبلوغها أعلى الذرى فيه " ، ص 329 وما يليها . وانظر أيضا : فصل : نبوغ جزيرة جربة في العلم في عهود الدولة الرستمية، وفصل: نبوغ جبل نفوسة .. إلخ

فمن هو ابن الربيع ؟ وما هو محتوى مخطوطه ؟ وما هي قيمته التاريخية؟

مؤلِف المخطوط: هو أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي القابسي المتوفي سنة 471هـ. (1079م) من ناحية تمولست من قبيلة مزاتة، أصوليٌّ وفقيه، أخذ عن أبي عبد الله محمد بن بكر النفوسي وعن أبي محمد ويسلان وعن أبي زكرياء يحي بن ويجمن. ويعدّ من أكابر العزابة. تخرج على يديه تلاميذُ وشيوخ كثر. قال عنه الدرجيني: هو أحدُ تلاميذ أبي عبد الله النجباء، أتقن علمَ الأصول ثم انتقل إلى جربة ليقرأ بها علم الفروع. وفيها علّم الطلبة علم الأصول. وحكى أنه " انتقل بتلاميذه الذين يقرأون علم الكلام إلى موضعة بتمولسة وكانوا هناك في عريش عملوه عند عيون تمولسة فكثروا واجتهدوا وحسنت أحوالهم، وكانت زنزفة ولماية ومزاتة ومما حولهم من القبائل يبذلون الجهد في معونة الطلبة بالهدايا والتحف والعطاء واللطف فكانوا في أبر حال إلاّ أنهم لحقهم خوف من العرب فإنّ الموضع الذي هم به هو ممر لأعراب إذا رحلوا من طرابلس إلى إفريقية أو متى رجعوا " . ويضيف أن تلاميذ أبي الربيع تفرقوا ثم عادوا فاجتمعوا بشيخهم وتوزعوا على غارين، وأنّ أبا الربيع لم يتصدر حتّى تبصر في الفقه ، وأنه زار مع بعض من تلاميذه سنة تسع وأربعين وأربعمائة"أهل الدعوة".

ولا يخفى لما لهذه الأوضاع من تأثير على الحركة العلمية وعلى حركة التأليف.

ولقد ذكر الدرجيني أنّ أبا الربيع لم يقبِلْ على التأليف إلاّ بعد رفض وكره ، وأنه كان يملي على تلاميذه ثم يستنسخُ ما يكتبون، وأنه رتّب في الجبل المعروف بتونين الحلقة فصار مأوَى للعزابة [1]. من مؤلفات أبي الربيع كتابُ التحف المخزونة في إجماع الأصول الشرعية ومعانيها [2]، وكتابٌ في

[1] – أبو العباس أحمد بن سعيد الدرجيني : طبقات المشايخ بالمغرب ، تحقيق إبراهيم طلاي ، ج1، الجزائر صص 191. 195

[2]– كتب محمود الأندولسي للتحفة مقدمة صدر بها تحقيقه المخطوط ، راجعها وعلق عليها د. المنصوري احتوت وصفا للعصر وتقديما للمؤلف وعرضا لأسباب التأليف ووقته ومحتويات الكتاب ، امتدت على الصفحات 5. 60.

طلب العلم يشتمل على باب واحد عنوانه " باب في طلب العلم وآداب العلم والتعلّم " ويعرف أيضا بكتاب السير، وكتاب ثالثٌ يبدو أنه مفقود.

وإذا كان كتاب " التحف" يمثل أشهر مؤلفات أبي الربيع وأهمّها، فإنّ لـ" كتاب" فضل العلم.." أيضا أهمّية، كما يقول الأندولسي، إذ يمكن أن يعدّ " دستورا لطالب العلم والمعلم لما فيه من إرشادات ومواعظ وتوعية بالواجبات والمسؤوليات " [1].

كتاب أبي الربيع : " في طلب العلم .. "

يوجد هذا المخطوط بالمكتبة البارونية تحت عدد 2/88، ويتكون من 19 صفحة مقياس 17/23 سم، نسخها صالح التندغيرتي في رمضان 1278 بالجامع الكبير. ويبدأ متنُ المخطوط بالحمدلة والصلاة، ثم يُذكر عنوان الباب: "باب في طلب العلم وما ينبغي لطالب العلم والعالم المطلوب إليه "، وينتهي بذكر اسم الناسخ وتاريخ النسخ ومكانه. يقول: " تمّ ما وجد بحمد اللّه وحسن عونه وتوفيقه على يد كاتبه ابن الورى وأحوجهم إلى المولى صالح بن محمّد بن صالح التندغيرتي غفر اللّه له ولوالديه أجمعين وقت الضّحى يوم الاثنين في شهر اللّه المبارك رمضان سنة1278 والحمد للّه ربّ العالمين وذلك بالجامع الكبير عمّره اللّه بالمسلمين".

يحملُ المخطوط عنوانين : أمّا الأول فهو " كتاب أبي الربيع في طلب العلم " وهو من وضع الناسخ ويمثل جزءا من العنوان الثاني الذي أضيف إلى كلمة باب، وهو "باب في طلب العلم وما ينبغي لطالب العلم والعالم المطلوب إليه". هذا العنوان من وضع أبي الربيع يشيرُ نصّه إلى

واهتمّ الأستاذ حمزة بوسهال بومعقل (ماجستير جامعة الجزائر 2012 ، 228ص) بكتاب التحف المخزونة ، وخلص إلى أنّ أبا الربيع كان من الشخصيات المحورية في المغرب العربي في القرن الخامس هجري وإلى أنّ الكتاب لا يعكس تحديدا في الطرح العقدي بقدر ما يعكس جهدا في الحفاظ على الدرس العقدي الإباضي من الاندثار ..

[1] – التحف المخزونة ، صص 29. 30.

القضايا الثلاث التي ستكون محور دراسة. ولكن تصديره بعبارة باب تطرحُ احتمالين: إمّا أن يكون الكتابُ فعلا بابا واحدا، أو أن يكون هذا المخطوط جزءًا من كتاب أكبر تضمن عددا من الأبواب قد تكون ضاعت، أو أنّ الناسخ اكتفى من الكتاب بهذا الباب فقط. والأرجحُ عندنا أنّ هذا المخطوط جزءٌ من كتاب أكبر ضاعت أبوابه الأخرى التي يمكن أن تكون في مسائل أخرى غير التعليم انطلاقا من أنّ هذا البابَ انطلاقا من عنوانه سيستوفي الكلام على العناصر الأساسية الثلاث وهي العلم والعالم والمتعلّم.

ولعلّ قول الناسخ في آخر الكتاب " تمّ ما وجد بحمده " يكشف عن انتباهه إلى احتمال سقوط جزء من الكتاب. وبغض النظر عمّا يكون قد حصل للكتاب الأصليّ فإنّ هذا البابَ يمثل نصّا متكاملا له بداية وله نهاية.

فما هي محتوياتُ هذا" الكتاب" ؟ وما هي الأصول التي بنى في ضوئها أبو الربيع تصوّره للنظام التربوي والتعليميّ محتوياتٍ وأساليبَ وأهدافا؟ وما هي الخطة التي اعتمدها في تأليفه؟ وما هي مظاهرُ الطرافة والجدة فيه؟

هذا المؤلفُ في التربية والتعليم. وهو بغضّ النظر عن حجمه يشكّل جزءًا من الموروث التربوي عند المسلمين عامّة وعند الإباضية على وجه التحديد.

ومن المعلوم أنّ هذا الموروث، تفكيرًا وتأليفا، يمتدّ على تاريخ طويلٍ يمكن اعتبار تدوين القرآن بدايته الأولى انطلاقا مما تضمنه القرآن من توجيهاتٍ وأفكار تعليمية وتربويّة.

لقد بدأ الكلامُ في التربية في الفكر العربيّ الإسلامي مندمجا مع علوم ومعارف أخرى في مؤلفات التفسير والحديث والفقه قبل أن يستقلّ في مؤلفات خاصّة شكلت عبر التاريخ مدونة واسعةً ساهم فيها علماء الفرق والمذاهبِ المختلفة.

ولقد قامت الرؤية للتعليم والتربية على أصلين أساسيين هما القرآن والسنة ثم أضيف إليهما اجتهادُ العلماء وأصحاب المدارس والمذاهب والفرق.

محتوى الكتاب : تتوزع مادةُ الكتاب إلى ثلاثة قضايا كبرى تشكل معًا العناصر الأساسية في العملية التعليمية هي: العلمُ والعالِم والمتعلّم.

*** العلم : حكمُه والغاية من طلبه ومحتوياته:**

استهل أبو الربيع " الكتاب" بالتذكير بوجوبية طلب العلم على كلّ مسلم بالغ صحيح العقل، معتمدا في ذلك على شاهد من القرآن وشواهد من الحديث.واكتفى بآية واحدة هي" "فأسألوا أهل الذّكر إن كنتم لا تعلمون"، وذكرَ عددا من الأحاديث التي وصل بينها دون شرحٍ أو تحليل. واحتجّ في بيان أنّ طلب العلم فريضة بما رُوي عن شيخه أبي زكرياء.

ولا شكّ في أنّ اختيارات أبي الربيع لأحاديثَ دون غيرها يكشف، للمتأمل، وجهة نظره التي وإنْ لم تختلف عن المألوف المشهور بين علماء المسلمين في وجوبية طلب العلم، إلاّ أنها تلحّ على أنّ مراتب الناس ثلاثة لا رابع لها: عالم أو متعلّم أو هالك لا خير فيه.

ولما كان طلبُ العلم فريضة اختار المؤلفُ من الشواهد ما يحقق غرضيْ الترهيب والترغيب، وما يؤكد قولَ شيخه: لا نجاة إلاّ بالعلم.

أمّا الغاية من العلم فهي غاية دينية وأخلاقية. فالعلمُ طريقٌ إلى التوحيد وإلى عبادة الله في مستوى الصلة العمودية بين الإنسان وخالقه. وهو طريقٌ إلى معرفة الحلال والحرام وفعلِ الخير في مستوى الصلة الأفقية بين الإنسان والإنسانِ.

على هذا النحو يصبحُ طلب العلم عبادة وجهادًا خاصّة في زمن " قلّة العلماء " كما جاء في الحديث الذي رواه عن أبي زكرياء، يهدف من ورائه المتعلمُ إلى تزكية النفس والفوز بالرحمة.

ولكن أيَّ علم يقصدُ ابن يخلف؟ ما هي محتوياته ؟

لم يفصّل أبُو الربيع القولَ في محتويات العلم الذي رأى أنّ طلبَه فريضة على كلّ مسلم بالغ صحيحِ العقل. غيرَ أنّ المتأمّلَ في الشواهد النصيّة التي استشهد بها يدرك أنّ العلم المقصودَ هو العلمُ الشرعي الذي محوره القرآن وما اتصل به من علوم اللغة والكتابة. ولكن لابن الربيع رأي هامٌ ، في ثنايا الكتاب، يستند فيه إلى قول أبي يحي مفاده أنّ تعليمَ التلاميذ الأخلاقَ والتأدب أفضل من تعليمهم الحلال والحرام. " لأنّ حاجتهم إلى الأدب أفضل وأشدّ " وقد تركوه وجهلوا به.

إنه بذلك يرتب المحتويات ويقدّم ما يراه ضرورة ملحة في علاقة بسن المتعلّم وحاجاته. وهو يعي صعوبة علم الحلال والحرام وتعقيداته لذلك يدعو إلى تعليم الأخلاق ليكون بمثابة الأرضية أو المقدمة الأولى لما يلي من علوم ومعارف وتخصصات.

***العالم : منزلتُه وواجبَاته:**

للعالم في الفكر الاسلامي عامة، والفكر الإباضي على وجه التحديد، مكانةٌ متميزة مرموقة تضاهي مراتبَ الرسل والأنبياءِ. ولذلك فإنه إذا أراد أنْ يبلغ هذه المكانة كان من الواجبِ عليه أن يكون زاهدًا في الدنيا حريصًا على فعل الخير عفيفًا.

ومن مظاهر عفته وسُمُوّ أخلاقه تحمّله مشقة تعليم تلاميذه وتأديبهم. فيكون رفيقًا بهم لطيفا معهم يرغبهم في العلم ويساعدُهم على تحصيله. وهو في ذلك يبغي مرضاة الله والفوز يوم الآخرة لا غيرَ.

ومن مظاهر الرفقة عدم الإغراق في التفصيلات وفي دقيق المسائل فيكتفي بما يوافق استعدادت التلاميذ وقدراتهم.

ومن واجبات العالِم في رأي أبي الربيع أنْ يتفرغ للعلم، ويخلص فيه فلا يجمع إليه إلاّ العملَ في الضيعات والمزارع أو القيام على شأن العيال في البيت. فالزمان ، كما قال، زمان فساد لا يسلم منه

غير تقيّ هجر الناس إلى الله. وعلى العالم إذا أحسّ نقصانا في عقله بسبب كبر أو علّة أن يكفّ عن الفتيا ، لما قد يخالط آراءه من فساد.

إنّ للعالم إذن منزلةً يبنيها ومكانة يرفعُ أعمدتها بالعلم وبالأخلاق. ولذلك نرى أبا الربيع يقرن بين العلم والأخلاق والزهد اقتران ضرورة إذْ لا علمَ إذا انحطت الأخلاق، بل لا دين إذا انتفت الآدابُ. ولذلك نرى المؤلف محذرا من الطمع والرياء متشددا في مجالسة النساء لما يورث ذلك من فسادٍ في الهمة وانشغال عن العلم في زمان " شديد غليظ [..] كثرت فيه الهلكة [..] اندرس فيه العلم وقلّ فيه الورع ".

وليس اختيار المزارع والضيعات أو القيام على شأن العيال في أوقات الفراغ إلاّ تأكيدا على قيمة العمل وعلى موقع العائلة وعلى ما قد تسبب فيه الخلطة في الأسواق والأماكن العامة من سوء أخلاق.

*** طالبُ العلم : صفاته وواجباته:**

عدّد ابن يخلف صفاتِ طالبِ العلم دون تنظيم أو تفصيلٍ. وهي في مجملها صفاتٌ أخلاقية تتوزع إلى :

– صفات طالب العلم في علاقته بالعلم كالصبر والاجتهاد والإخلاصِ والتواضع والعملِ بالعلم ورعاية العلم. قال: " وقال أيضا أوّل العلم الصّمت وحسن الاستماع ويليه الحفظ والرّعاية" .

وعلى الطالب أنْ يكون شغوفا محبا للعلم عارفا بقيمته، وأن يحذر الغرور والحسدَ والجمع بين حب العلم وطلب الدنيا.

– صفات طالب العلم في علاقته بالمعلّم: كحسن الاستماع وخفة المؤونة على المعلّم والصبرِ على ضيق صدره .. قال: " .. فينبغي لطالب العلم أن يجعل طلبه للّه خالصا ولما عنده طالبا وفيه مجتهدا صابرا متواضعا حريصا خفيف المئونة على معلّمه.."

إنّ هذه الصفاتِ وغيرها شروط لا بدّ من احترامها والالتزام بها. فإذا انتفت فقدَ المتعلّم هذه المنزلة، وقد يُطرد من الحلقة. ولقد عبّر المؤلف عن هذه الإلزامية باستعمال أفعال مثل: ينبغي ، يحتاجُ ، وباعتماد صيغ الأمرِ والنهي.

وكما أنّ للتلميذ حقّا في التعلّم، فإنّ عليه واجباتٍ أخلاقيةً تساعدُه على تحقيق بغيته وتساعدُ معلّميه على انجاز مهامهم.

* **الأساليب والطرق:** تخللت الكلامَ على وجوبية العلم وصفات العالم والمتعلّم إشاراتٌ إلى أساليب التعليم وبعض الوسائل التي تساعد على التعليم والتعلم. وهي جميعُها وسائل وطرق مقوية:

– للجانبِ الروحي كالدعاء والذكر والتفكيرِ في الموت والاستغفار.

– وللجانبِ التواصليِّ كالتشاور والتناصح ..

ولعلّ الغالبَ على تصور أبي الربيع تأكيد فضل الخلوة والعزلة عن الناس في الحفظ والمراجعة.

منهجُ التأليف:

يوحي العنوانُ بأنّ المؤلف سيتبع خطة في إيراد المادة ينقسم في ضوئها الكتاب / الباب ، إلى ثلاث فقرات مرتبة على النحو التالي: 1. في طلب العلم 2. وما ينبغي لطالب العلم 3. والعالم المطلوب إليه. غير أنّ الناظرَ في النص يلاحظ أنّ أبا الربيع لم يلتزمْ خطّة واضحة. لقد جاءت مادةُ الكتاب، باستثناء بدايته، على غير منهج، يحكمُها التداعي. ولعلّ مردّ ذلك أنّ المؤلفَ كان يرتجل مادة كتابه ويمليها من محفوظه، ولم يتسن له تقييدها ومراجعتها.

أسلوبُ الكتاب: اختار أبو الربيع أسلوبَ العرض والسرد في ألفاظ سهلة وعبارات متيسرة وتراكيبَ يخالطها أحيانا الأسلوبُ الشفوي.

ولعلّ الدافعَ إلى هذه الاختيارات غاية الإفهام والتبسيط، بالإضافة إلى أنّ المؤلفَ لم يتناول المسألة باعتبارها قضية خلافية. وهو غالبا ما يختفي وراء الأقوالِ التي يستشهد بها فيكتفي بـ : قال (..). وقد يعلق بجملة حمدًا أو دعاءً.

تقييمُ الكتاب:

بعد عرض زمن تأليفِ الكتاب ومادته نرى من المفيد أنْ نقيّمه فنشيرُ إلى أنّه من ناحية المحتوى لم يكن في بيداغوجيا التعليم بلْ كان أقرب إلى التذكير بمبادئ عامة لذلك نحا منحى تأصيليا وأخلاقيا. هو كتابُ وصايا وتذكير بالمبادئ والأسسِ، غلب عليه الإجمالُ فلم يتوسّع ولم يفصّل.

ولقد اكتفى فيه صاحبُه بسرد المشهور من الأقوال والآراء التي تمثل محلّ إجماع بين كل المسلمين. ولذلك فهو لا يعطي صورة واضحة عمّا يميّز "نظرية" الإباضية في التعليم. ولعلّ السببَ في ذلك أنّ أبا الربيع لم يوسع القول في المحتويات التعليمية، بالإضافة إلى أنّ الفرقة اختارت في هذا الزمن ألاّ تثير الجدل والنقاش فتعمق الافتراق بين مكونات الأمة. لذلك صحّ اعتبار الكتاب يمثل " دستورا" أيْ مبادئ ووصايا عامة، لابن الربيع فضلُ التذكير بها ، في كتيّبٍ صغير، يسهل حفظه ونشرُه في زمن تعاظمت فيه المخاطر وانعدم الأمنُ.

إنّ كتاب ابن يخلف بالنظر في مادته هو كتابٌ، بالأساس، في أخلاق العلم والتعلّم. ولذلك هو مختلفٌ، إلى حدّ ما، مع طائفة أخرى من المؤلفات سبقته أو رافقته اعتنى فيها أصحابها، بالإضافة إلى المبادئ والأصول، بالطرق والكيفيات والمحتويات ، مثل ما جاء في رسالة ابن سحنون

" آداب المعلمين" التي ألفها في القرن الثالث للهجرة والتي تضمنت فقرات عن الأجر والعطل والعقوبات[1] .

ولا شكّ أن للكتاب قيمة فكريةً وتاريخية وتوثيقيةً هامة إذ أبان عن:

1. في ما يتعلق بالمذهب:

+ شدّدَ على الصلة المتينة بين العلم والعمل، حتّى أنّ أهلَ المذهب قسّموا العام إلى ثلاثة أثلاث: ثلثين لتحصيل العلم وثلث للحرث والحصد. ووزعوا اليوم إلى ثلاث فضاءات هي المسجد والضيعة والدارُ.

+ ذكر أنّ الأخلاقَ والأدب مقدّمان على سائر العلوم لحاجة الثانية إلى الأولى.

+ بيّن أهميّة دورِ الحلقة، باعتبارها مؤسسة تعليمية لتخريج العلماء والدعاة، في التحصيل العلمي وترسيخ المذهب والمحافظة عليه و في صناعة القادة.

+ فضّل الخلوةَ والعزلة في تزكية النفس والإقبال على العلم ابتغاء رضى الله.

2. في ما يتعلق بالعصر:

+ وصف أبو الربيع عصره بأنه زمان فتن وفساد، و ذكر أنّه قليل العلماء.

+ واعتبر أغلب " علمائه" أهلَ دنيا ووصفهم بـ " علماء السوء".

+ وفضّل الماسك على دينه في هذا الزمان، حتّى أنّ المؤمن فيه المعالجَ لنفسه خير من سبعين من صحابيّ كما قال.

+ وذكر حاجة العصر إلى الإنفاق على العلم، ورغّب في ذلك. ولذلك نجده يعتبر إنفاق درهم على العلم كصدقة ألف درهم .

[1]– ابن سحنون : آداب المعلمين : تحقيق حسن حسني عبد الوهاب مراجعة محمد العروسي المطوي ، تونس 1972.

خاتمة:

يُعتبر أبو الربيع سليمان يخلف أحد أشهر تلاميذ أبي عبد الله بن بكر النفوسي الذي أبدع نظام العزابة ، وخرّج على يديه فقهاءَ وأصوليين حافظوا على المذهب ونشروه. جمعَ بين التدريس والتأليف، وكان عالما بالأصول. ولذلك نجده حين تصدى إلى التأليف في التعليم نحا منحى التأصيل وبيان المبادئ العامة التي يجبُ أن يقوم عليها النظام التعليميّ من وجهة نظر إسلامية وإباضية، ولم يفصّلْ القولَ في الأساليب والمحتويات، ليترك بذلك مجالا من الحرية لمعلّمي المذهب ودعاته يبدعون الحلولَ المناسبة بحسب ما تقتضيه أحوال الزمان والمكان. ولذلك صحّ تشبيه هذا الكتاب بـ" الدستور".

المصدر والمراجع:

* سليمان بن يخلف (أبو الربيع) :

في طلب العلم وما ينبغي لطالب العلم والعالم المطلوب إليه (مخطوط) ، المكتبة البارونية (جربة) 88/ 2 ، 19 ص .

* الجعبيري (فرحات) : نظام العزابة عند الإباضية الوهبية منشورات المعهد القومي للآثار والفنون، تونس 1975.

* الدرجيني (أبو العباس أحمد بن سعيد) : طبقات المشايخ بالمغرب ، تحقيق إبراهيم طلاي ، ج1، قسنطينة الجزائر 1974 .

* دبوز (محمدعلي) : تاريخ المغرب الكبير ، مؤسسة تاوالت الثقافية 2010.

* الميلي (مبارك) : تاريخ الجزائر في القديم والحديث ، المؤسسة الوطنية للكتاب د ت .

* ابن سحنون (محمد): آداب المعلمين، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب مراجعة محمد العروسي المطوي ، تونس 1972.

* سليمان بن يخلف (أبو الربيع): التحف المخزونة ، تحقيق محمود الأندلوسي ، مراجعة مبروك المنصوري، سلسلة المخطوطات الأصولية في الغرب الاسلامي، د . ت .